الرحلات العلمية المعاصرة وأثرها في التربية والثقافة والإبداع

د. زكرياء الخوة

أستاذ الدراسات الإسلامية والاجتماعية

المدارس السعودية، سفارة المملكة العربية السعودية بالرباط، المملكة المغربية

ملخص: تناولت في هذه الورقة موضوع "الرِّحلات العلمية" من حيث نشأتها وتاريخها وأهميتها للطلاب والأساتذة، وبينت في محاورها أثر الرحلات العلمية المعاصرة في التربية والثقافة والإبداع، بمقاربة شرعية تربوية ثقافية، وتحليل علمي مختصر تجنبت فيه الإطناب والحشو. وقسمت الورقة إلى محاور خمسة: تناولت في الأول: نشأة الرِّحلات العلمية وتاريخها، من خلال ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية، ثم عرضت في المحور الثاني: أهمية الرحلة للأستاذ والطالب، وضرورتها في تقوية المهارات وتطويرها وتنميتها. أما المحور الثالث: فقد خصصته لأثر الرحلة في التربية والسلوك، وما يتبعها من تقويم الأخلاق وتعزيز القيم النبيلة، وبحثت في المحور الرابع: أثر الرحلة في التعليم والثقافة، وبينت من خلال مجموعة من العناصر تجليات الرحلة على الثقافة والتكوين العلمي. ثم ختمت بمحور خامس: بينت فيه أثر الرحلة في الابتكار والإبداع، وعرضت من خلال عناصره مجموعة من القضايا التي تؤثر في الابداع وتثري حضارة البلد وثقافته. وتوجت بحثي بخاتمة عرضت فيها أهم النتائج العلمية التي توصلت إليها، ثم فهرس المصادر والمراجع التي اعتمدتها في جمع المادة ودراستها.

الكلمات المفتاحية: الرحلات، العلمية، الثقافة، الإبداع، التربية.

Contemporary scientific trips and their impact on education, culture and creativity

DR. Zakaria Elkhaoua

Professor of Islamic and social studies
Saudian schools, KSA embassy at Rabat, Morocco

Abstract: In this paper, I dealt with the subject of "**scientific trips in terms of their origin, history**", and importance for students and professors, and illustrated in its axes the impact of contemporary scientific trips on education, culture and creativity, with a legal, pedagogical and cultural approach, and a brief scientific analysis in which I avoided overstatement and tampering. The paper was divided into five axes: It dealt in the first axis: the emergence and history of scientific trips, through what was mentioned in the Holy Qur'an and the Sunnah of the Prophet, and then presented in the second axis: the importance of the trip for the teacher and student, and its necessity in strengthening and developing skills. As for the third axis: it was devoted to the impact of the trip on education and behavior, and the subsequent evaluation of morals and the promotion of noble values, and I discussed in the fourth axis: the impact of the trip on education and culture, and it showed through a group of elements the manifestations of the trip on culture and scientific formation, and made the fourth axis: to show The effect of the trip. Then it concluded with a fifth axis: in which it showed the impact of the trip on innovation and creativity, and presented through its elements a set of issues that affect creativity and enrich the country's civilization and culture. My research culminated in a conclusion in which I presented the most important scientific results that I reached, then the index of the sources and references that I relied on in collecting and studying the material.

Keywords: Trips**,** Scientific**,** Culture**,** Education, Creativity.

01- مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد،

إن العناية بتاريخ الأمة الإسلامية والاهتمام بصفحاته المشرقة التي صورت لنا النماذج المثلى للازدهار الاجتماعي والرقي المعرفي والتكامل الاقتصادي من أكد البحوث في زماننا هذا، لأن هذا من جملة إحياء التراث والإفادة مما جاء فيه من الأحداث والقضايا التي يمتح الباحث منها ما يخدم به حاضره ويستشرف به مستقبله.

ومن القضايا البارزة التي حفل بها تاريخنا وأثرت في بناء حضارتنا ومجدنا: "الرحلات العلمية" التي أسهمت إسهاما بالغا في تحصيل العلوم والمعارف ونشرها، وكان لها دور كبير في تعزيز التعاون الدولي في مجالات التربية والثقافة والإبداع وتطوير المهارات والقدرات.

وقد استمرت هذه الرحلات في كل عصر من العصور بغية تحصيل العلوم الشرعية، وطلب العلوّ في أسانيدها، واكتشاف المراكز الحضارية والثقافية التي اشتهرت في شتى البلدان، ولم تكن الرحلة مقتصرة على طلب الحديث الشريف واستجازة العلماء فيه، بل كانت منذ القدم في شتى العلوم والمعارف "الطب والهندسة والفلك والتجارة ..." وغيرها، كما هو الحال في زماننا الحاضر.

الإشكالية وأسئلة البحث:

إن الناظر في عصرنا وما شهده من التقدم والرقي المعرفي والطفرات المعلوماتية يلحظ ضعف الهمم من بعض المتمدرسين وإغفالهم لجانب الرحلة داخل الوطن أو خارجه، لأن المعلومات والعلوم –حسب الدعاوى المطروحة– موجودة في كل وقت على المواقع والبوابات العلمية، وهذا لا يُقبل في العلم والمعرفة عند أهل التحقيق، لأن العلم يبنى على الحقائق والأدلة القوية المحصلة بأسانيد عالية من أصحابها، والأخذ عن أهل الاختصاص بصفة مباشرة والجلوس إليهم والتعلم على يدهم أبلغ وأقوى من الأخذ بالوسائط، ثم إن هذه الوسائط المعاصرة ليست على مستوى واحد من الثقة والجدة في الطرح والدراسة والتحليل والمناقشة، ولو كان الأمر كذلك لما احتاجت الدول

المتقدمة إلى تخصيص الميزانيات الضخمة للابتعاث والمنح الخارجية وتخصيص الموارد التي يحتاجها البحث العلمي والتقني، من هنا يمكن طرح الأسئلة الآتية:

هل يمكن الاكتفاء في التحصيل العلمي والمعرفي بالمنصات الرقمية دون الحاجة إلى رحلات علمية وبعثات دراسية؟

هل يمكن بناء صرح علمي قوي من خلال المنصات الرقمية دون تعليم مباشر وسماع من أهل الاختصاص والخبرة، ومشاهدة التجارب العلمية والتدرب أمام أعين وأنظار الخبراء؟

لماذا خصصت الدول المتقدمة والنامية ميزانيات خاصة بالابتعاث وإرسال الطلاب والأساتذة من أجل حضور برامج أكاديمية ودورات بحثية تهدف إلى تطوير وتنمية الكوادر الوطنية؟

من أجل ذلك أردت الإسهام والمشاركة بهذا البحث الوجيز الذي تناولت فيه بالدرس والتحليل الموضوع الآتي:

"الرِّحلات العلمية المعاصرة وأثرها في التربية والثقافة والإبداع"

والذي حررته ودرست محاوره وفق مقاربة شرعية تربوية ثقافية، باعتماد جملة من المناهج العلمية:

أحدها: المنهج الوصفي التأريخي الذي أعملته في وصف الرحلة العلمية ونشأتها وتاريخها ثم تطورها، الثاني: المنهج الاستقرائي الذي تتبعت به المادة العلمية المتعلقة بالرحلات العلمية، الثالث: المنهج التحليلي واستخدمته عند تحليل المعطيات المتعلقة بالرحلات العلمية وأثرها في التربية والثقافة والإبداع.

ولم أعرِّج في بحثي على تعريف الرحلات العلمية وآدابها وأهدافها لأن ذلك موجود مبحوث، ويكفي الناظر إذا رغب في الاستزادة والتفصيل أن ينظر ما كتبه علماء مصطلح الحديث كابن خلاد والحاكم النيسابوري والخطيب البغدادي وابن الصلاح في آداب الرحلة وفوائدها، ولينظر كذلك ما كتبه من المعاصرين الدكتور نور الدين عتر رحمه الله في مقدمة تحقيقه لكتاب "الرحلة في طلب الحديث" وما كتبه الدكتور عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله في كتابه: "صفحات من صبر العلماء" فهي كافية في تحصيل آداب الرحلة وفوائدها.

وأكتفي في هذا التقديم الوجيز بما قاله علمين من أعلام المسلمين الذين رحلوا في طلب العلوم وكان لرحلاتهم العلمية تأثير كبير في اجتهاداتهم وآرائهم ومذاهبهم، الأول الإمام المطَّلبي محمد بن ادريس الشافعي رحمه الله الذي قال:

ما في المَقامِ لِذي عَقلٍ وَذي أَدَبِ مِن راحَــةٍ فَــدَعِ الأَوطــانَ وَاغتَرِبِ

ســافِر تَجِــد عِوَضــاً عَمَّــن تُفارِقُهُ وَانصَب فَإِنَّ لَذيذَ العَيشِ في النَصَبِ

إِنّي رَأَيــتُ وُقــوفَ المــاءِ يُفسِــدُهُ إِن ساحَ طــابَ وَإِن لَم يَجرِ لَم يَطِــبِ (الشافعي، 1995)

ثم الإمام الرحَّالة المحدث ابن رشيد السبتي رحمه الله، صاحب الرحلة المشهورة "ملئ العيبة" حيث يقول:

فغــرِّب ولا تحفــل بفرقــة موطــن تفز بالمنى في كل ما شئت من حاج

فلولا اغتراب المسك ما حل مفرِقا ولولا اغتراب الدرِّ ما حل في التاج (أبوغدة، 2003)

الدراسات السابقة:

تناولت جملة من المصادر العلمية المتقدمة أهمية الرحلة وآدابها، وقد أشرت آنفا إلى بعضها، ولا يمكن تفصيل الحديث عنها هنا لأن ما درسه أصحابها إنما يتعلق بالأهمية والآداب العامة، وهذا لم أخصص له محورا في بحثي، بل أشرت إلى مظانه في هذا التقديم غنية عنه، أما الدراسات التي تناولت موضوع الرحلات العلمية من حيث الأثر والإسهام في خدمة الأوطان والمعارف المتنوعة التي تهدف إلى تحقيق الابداع والابتكار والتميز، فلم أجد –حسب بحثي واطلاعي– من درس الموضوع بهذه الرؤية، خلا بعض الإشارات التي بثتها المواقع الرسمية للجامعات التي تحفز طلابها ومنسوبيها على الابتعاث ودوره في تحقيق التميز للفرد والمجتمع، وهي لا ترقى لأن تكون دراسة سابقة في هذا الموضوع.

أما الإضافة التي قدمها البحث وخلت منها المصادر المشار إليها أعلاه فهي: تناول الأثر الكبير الذي يجده الرحالة في رحلاته العلمية، والذي يتجلى في تطوير المعارف وتنمية القدرات واكتشاف المستجدات التي يسعى إليها، بالإضافة إلى أثر الرحلة في الابتكار والإبداع حين يعود المبتعث إلى وطنه من أجل تنزيل المكتسبات على الساحة العلمية التي عاد لها.

أهداف البحث:

يروم البحث تحقيق الأهداف الآتية:

أولا: بيان أهمية الرحلة العلمية للطالب والأستاذ، وأثرها في تطوير كفاءاتهما ومهارتهما المعرفية والتربوية.

ثانيا: إبراز أثر الرحلات العلمية في السلوك والتربية.

ثالثا: بيان أثر الرحلات العلمية المعاصرة في التحصيل العلمي والابتكار والإبداع.

خطة البحث:

قسمت البحث إلى محاور خمسة ثم خاتمة وفهرسة المصادر والمراجع:

المحور الأول: نشأة الرحلة وتاريخها.

المحور الثاني: أهمية الرحلة لطالب العلم والمعلم.

المحور الثالث: أثر الرحلة في التربية والسلوك.

المحور الرابع: أثر الرحلة في الثقافة والتعليم.

المحور الخامس: أثر الرحلة في الابتكار والإبداع.

وتفصيل ذلك كما يلي:

02- المحور الأول: نشأة الرحلة وتاريخها.

إذا اعتبرنا أن الرحلة من السنن الكونية المتجددة في كل العصور والأزمنة، ومن الفطرة التي فُطِر الناس عليها، فنشأتها كانت مع نشأة الكون وخلق الخلق، وذلك بعد أن خلق الله عز وجل آدم عليه السلام وسبق في علمه أنه سيكون خليفة في الأرض، قال سبحانه: " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً". (سورة البقرة، آية 30)

لتكون بذلك أول رحلة في تاريخ البشرية وهي نزول آدم عليه السلام وزوجه من الجنة إلى الأرض، ليحققا بذلك سنة الاستخلاف، قال سبحانه وتعالى: " وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ" (سورة البقرة، آية 36). وقال تعالى: " قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ". (سورة البقرة، آية

38). فهذه أول رحلة من موطن إلى آخر، ثم حكى القرآن الكريم عن رِحلات أخرى وقعت في تاريخ البشرية، لغايات مختلفة إما لتحقيق الاستخلاف أو التعلم والتعليم أو التجارة وطلب الرزق، ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم:

أولا: رِحلة إبراهيم عليه السلام وزوجه هاجر وابنه إسماعيل إلى أرض مكة.

قال الله تعالى: " رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ". (سورة إبراهيم، آية 37).

ثانيا: رِحلة إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام إلى مكة المكرمة، تنفيذا لما أمره الله به من رفع القواعد وبناء البيت الحرام. قال سبحانه وتعالى: " وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ". (سورة البقرة، آية 125).

ثالثا: رحلات بني إسرائيل بين أرض مصر وفلسطين.

قال تعالى: " وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ". (سورة البقرة، آية 58). وقال سبحانه: " اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ" (سورة البقرة، آية 61).

رابعا: رحلة موسى مع الخضر عليهما السلام.

انطلاقا من قوله تعالى: " وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا " (سورة الكهف، آية 63). وقوله تعالى: "فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ" . (سورة الكهف، آية 71).

وكانت هذه الرحلة هي أولى الرحلات العلمية التي تحدث عنها القرآن بتفصيل وبين جزئياتها، وكيف يكون المتعلم مع العالم، وأن الصبر في تحصيل العلوم أمر مطلوب لا غنى للعالم والمتعلم عنه.

فالعالم يصبر على مرارة أداء الواجب ويتحمل الأذى وكثرة السؤال من تلميذه، وقد يكون الأذى ماديا كالتلفظ بألفاظ لا تليق في مجلس العلم أو الرحلات العلمية، وقد يكون الأذى معنويا، كنكران الجميل وجحود الجهود المبذولة من العالم للمتعلم، وعدم الوفاء بحقه، إما أثناء الطلب أو بعد نهاية الطلب.

لهذا أفرد علماؤنا الأجلاء رحمهم الله جميعا بعض مؤلفاتهم ببيان آداب العالم والمتعلم، ومن ذلك ما كتبه الإمام أبو بكر الآجري رحمه الله في كتابه الماتع النافع: "أخلاق العلماء" وما كتبه الخطيب البغدادي رحمه الله في كتابه القيم: "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع"، وما كتبه القاضي عياض رحمه الله في "الإلماع إلى معرفة الرواية وتقييد السماع.

وما ورد في رحلة موسى والخضر عليهما السلام من المعاني العظيمة والفوائد الجسيمة، حق أن يفرد بالدراسة والعناية، مع جمع الآثار الواردة في السنة النبوية وبحثها وتقويمها.

خامسا: رحلة الإسراء والمعراج. وهي من الرحلات العظيمة التي وثقها القرآن الكريم رحلة الإسراء والمعراج التي خُصَّ بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووقعت فيها أحداث وقضايا كثيرة دلت على معجزة وقعت في ذلك العهد لن يستطيع أحد الإتيان بمثلها.

قال سبحانه وتعالى عن رحلة الإسراء من مكة المكرمة إلى بيت المقدس الشريف: "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ". (سورة الإسراء، آية 1)

وذكر سبحانه وتعالى ما يتعلق بمعراجه عليه السلام من بيت المقدس إلى السماء في قوله تعالى: " وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)" (سورة النجم، الآيات: 1-18).

وهي آيات صريحة واضحة في الأحداث التي شهدها رسول الله صلى الله عليه وسلم في رحلته المعجزة، وقد جاءت جميع جزئياتها وأحداثها في كثير من الآثار الثابتة في السنة النبوية، وليس المقام مقام عرض ذلك ومناقشته، ونكتفي هنا بثبوت الرحلة.

سادسا: الرحلة من مكة إلى المدينة المنورة، "الهجرة".

الهجرة هي رحلة بإذن من الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم عليه الصلاة والسلام للخروج في سبيل الدعوة وإعلاء كلمة الحق والدين، وهي من سنن الله الكونية التي دعا إليها في القرآن الكريم أكثر ومن ذلك: قوله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا". (سورة النساء، آية 97). فسنَّ الهجرة والرحلة لمن وجد ضيقا في دينه ومعاشه، وأرض الله واسعة، لطلب الدين والدنيا. وقد ذكر القرآن الكريم بعض أحداث الهجرة النبوية التي أضحت تاريخا يقوّم حياة المسلمين ويفخرون به، ومن ذلك: قوله تعالى: " إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ". (سورة التوبة، آية 40).

ثامنا: الرحلات والبعثات الرسمية في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

منذ هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة وأقام أسس الدولة الجديدة، وأرسى قواعدها ودستورها في الميثاق المشهور "ميثاق المدينة" الذي جعله المسلمون منطلقا لهم في تعاملاتهم وقضاياهم مع بعضهم من المسلمين ومع من كان يعيش معهم من أهل الكتاب، وهو دستور عظيم يحتاج إلى قراءات ودراسات تبرز للعالمين عظمة الدين وقدرته على سياسة الناس وقضاء حوائجهم.

وبعد هذا كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعثات يبعث بها إلى الملوك والحكام في شتى أقطار المعمورة، من أجل دعوتهم وبيان ما أنزل عليه من ربه، وقد وثق المؤرخون وأهل السير لهذه الرحلات والبعثات إلى اليمن ومصر وبلاد الشام وغيرها من البلدان التي تحيط بجزيرة العرب، وذكروا أحداثها وما أجري فيها من القضايا الهامة المتعلقة بالدين والعلم والمعاملات.

تاسعا: الرحلات في عصر الصحابة رضوان الله عليهم

بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي زمن الخلافة الراشدة، تفرق الصحابة في الأمصار، وشدوا الرحال إلى مختلف الأقطار، من أجل نشر الدين والدعوة إليه، وتكوين مدارس فقهية وحديثية أضحت فيما بعد صروحا علمية يحج إليها الناس من مختلف البلدان والأقاليم، ومن ذلك مدرسة العراق بفروعها الكوفة والبصرة وبغداد، التي كانت مهد الحضارة الإسلامية إلى عصور متأخرة، وظهرت فيها جملة من الفرق والأعلام حق للمسلم أن يفخر بهم كالإمام أبي حنيفة النعمان، وصاحبيه أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشباني، ثم الشافعي في بداية رحلته التي قصد فيها بغداد، ثم الإمام أحمد وغيرهم من الأعلام الذين تميزوا في شتى العلوم والمعارف.

وغيرها من المدارس كمدرسة مصر والشام واليمن، وهذه المدارس كانت مقصدا لطلبة العلم الذين رحلوا وأخذوا من علم أهلها من مشارق الأرض ومغاربها، وقد وثق الإمام ابن القيم رحمه الله لرحلات الصحابة ومن جاء بعدهم وتحدث عن هذه المدارس في كتابه: "أعلام الموقعين عن رب العالمين".

عاشرا: رحلات فقهاء وعلماء التابعين ومن جاء بعدهم.

اهتم فقهاء المسلمين وعلمائهم بالرحلة في طلب الحديث الواحد من أجل علو الإسناد وابتغاء القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم في تحملهم للحديث والرواية، وقد تحدث الخطيب البغدادي رحمه الله في كتابه الماتع "الرحلة في طلب الحديث" عن اهتمام الرواة من الفقهاء والعلماء في طلب الحديث الواحد، وعلو همتهم في ذلك، وكيف حفظت الرحلة السنن والآثار المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم في الأصول والفروع والشمائل والسير، ومن أمثلة ذلك:

- رحلة العلماء إلى المدينة للقيا مالك رحمه الله والسماع منه.
- رحلة الإمام البخاري في طلب الحديث الصحيح وجمعه من بخارى إلى العراق.
- رحلة الإمام مسلم إلى العراق وسماعه من أهلها.

وغير ذلك من الرحلات العلمية الكثيرة التي أسهمت في نشر العلم والفقه والمعارف، وأثرت في بناء الحواضر العلمية وتأسيسها، وخدمت المجتمع المسلم بتعدد الثقافات في المجتمع الواحد،

لأن الرحالة إذا قدم من بلده إلى بلد أخر يقدم بثقافته وما اكتسبه من العوائد والأعراف التي تميز بلده وينقلها الى البلد الذي قدم إليه من أجل طلب العلم أو التجارة أو غير ذلك من مقاصد الرحلة.

ولا شك أن تأثير الرحلة عند المتقدمين ومن جاء بعدهم من العلماء والأدباء وأهل المعارف وأرباب الأحوال واقع لا محالة، كما أسهمت الرحلة في بناء الحضارة الإسلامية التي تميزت بتنوع الثقافات وتعدد المعارف، وهذا أمر معهود وموثق في كتب التأريخ والنوازل والفتاوى، ويلحظه في زماننا هذا من دأب على الرحلة من أجل التعلم والتعليم.

يقول العلامة ابن خلدون رحمه الله عن تميز هذه المدارس، وخصوصية الحواضر التي حلت بها: "واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الإسلام واستوت فيها الحضارة، كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين" (ابن خلدون، 1988).

وتوالت الرِّحلات من بلد إلى آخر، وعظم شأن الرحلة عند العلماء والأدباء فدوَّن كثير منهم أحداثها وسجل مسارها، وأرخ لمحطاته التي نزل بها ومن لقي من الأعيان والنظار والمثقفين، حتى أضحت هذه الكتب التي هي في أصلها رحلات خاصة مصدرا من مصادر التاريخ، ومعجما من المعاجم التي اهتمت بترجمة الأعلام وبيان حياتهم العلمية، ومن أمثلة ذلك: رحلة أحمد ابن فضلان في القرن الرابع الهجري، ورحلة أبو زيد السيرافي في القرن نفسه، وبعدهما رحلة ابن جبير الأندلسي في القرن السادس، ورحلة ابن خلدون في القرن الثامن، ورحلة المحدث ابن رشيد السبتي في القرن ذاته، وغيرها من الرحلات العلمية والاجتماعية.

03- المحور الثاني: أهمية الرحلة لطالب العلم والمعلم.

لا يخفى على المختصين أهمية الرحلة وضرورتها لطالب العلم والمعلم على حد السواء، ولولا كثرة الرحلة لما انتقل علم المشرق إلى المغرب والعكس، ولولا الرحلات لما انتشر الدين وتأسست الدول والحواضر والمدارس العلمية في مختلف الميادين والحقول المعرفية: "شرعية، أدبية،

اجتماعية، لغوية" وغيرها من الحقول الإنسانية، ومن أجل هذه الأهمية دعا القرآن الكريم إلى السير في الأرض وابتغاء الرزق والفرار من الضيق إلى السعة، وجعل ذلك من السنن الكونية التي يعمل بها كل جيل من الأجيال. قال سبحانه: " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ"(سورة الملك، آية 15)، وقال تعالى: " فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ". (سورة الجمعة، آية 11).

وقد تحدث علماؤنا الأجلاء عن أهمية الرحلة ودورها في نشر العلوم المعارف وترسيخ القيم والأخلاق، ومن ذلك ما ذكره العالم الفقيه المؤرخ ابن خلدون رحمه الله في تاريخه عن طبيعة الإنسان وفطرته وأهمية الرحلة إليه، من أجل تحصيل العلوم والصنائع بقوله: "ومن تشوف بفطرته إلى العلم ممن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي لفقدان الصنائع في أهل البدو، كما قدمناه ولا بد له من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة شأن الصنائع كلها" (ابن خلدون، 1988). وقال في موطن آخر: "فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال" (ابن خلدون، 1988).

وتكمن أهمية الرحلة بالنسبة للطالب والمتعلم في الأمور الآتية:

أ. **تربية النفس وتزكيتها**، بالاطلاع على أحوال الناس في البلدان الأخرى التي تكون الظروف فيها أحيانا أقسى من ظروف بلد الطالب والمتعلم، فيكون اطلاعه على أحوال الطلبة والتلاميذ وما يبذلونه في تحصيل العلوم والصنائع مؤثرا له على تربيته وتزكية نفسه.

ب. **التواضع واكتساب القيم**، وذلك برؤية أحوال الشيوخ والعلماء والصناع المهرة، وكيف يتعاملون مع تلاميذهم ومحيطهم، وكيف يعاملهم الناس ويرفعون من شأنهم بين العامة الخاصة، فيحس الطالب والمتعلم بما عنده من العلوم والمعارف بالتواضع وخفض الجناح لأنه رأى من هو أعلم وأفقه منه كيف يعيش بين أهله وطلابه ومحيطه.

ج. **التأسي والاقتداء أخلاق العالم والفقيه**، لأن الطالب يرى من عبادته وحسن خلقه ما يدعوه الى الاقتداء به والتخلق بأخلاقه، وهذه فطرة فطر الله الناس عليها، إذا جعل القدوة والأسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم، وبغيره من الأنبياء في دعوتهم وعبادتهم. قال تعالى: " لَقَدْ كَانَ

لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا". (سورة الأحزاب، آية 21). وسياق هذه الآية سياق جهاد وحرب وقتال، يدعو فيها المؤمنين إلى التأسي والاقتداء بأحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما شاهدوه من فِعاله. وقال عز وجل: " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ". (سورة الممتحنة، آية 06).

فالطالب الذي يرى من سلوك شيخه ومعلمه من الخير والمعاملة الحسنة وحسن عبادته وطريقة تبليغه وبيانه، لا شك أنه يتأثر بذلك ويقتدي به. ومما روي في ذلك أن أمَّ الإمام مالك بن أنس رحمه الله كانت تعممه وتقول له اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه (القاضي عياض، 1983).

د. **التعرف على ثقافة الآخر**، وذلك خلال رحلته من بلده وما يمر به من المحطات وصولا إلى البلد المرتحل إليه، يرى المتعلم والطالب جملة من العوائد والأعراف التي لم يعهدها في بلده، والتي تمثل ثقافة كل حاضرة من الحواضر التي مرَّ بها، ويكون بذلك قد اكتسب معرفة جديدة بثقافة الآخر ورؤية جديدة يضيفها إلى رصيده المعرفي.

هـ.**التعرف على نمط العيش**، وذلك برؤية كلية للمجتمعات التي مرَّ بها في رحلته، وكيف تحيا وتمارس أنشطتها المختلفة بقواعد خاصة بها، وبعض القواعد المشتركة التي تجتمع في العمل والعيش بها مجموعة من البلدان والأقطار.

و. **التعرف على الأحوال السياسية**، والقوانين المنظمة للبلدان التي مرَّ بها الرحالة في رحلته، لأنه إذا دخل إلى أي بلد فهو بحاجة إلى اتباع أنظمته وقواعده التي تحكم المجتمع والفرد في ذلك البلد، وهذه ميزة إضافية يفيد بها نفسه ومجتمعه إذا رجع من رحلته.

ز. **التعرف على تاريخ المنطقة وحضارتها**، وذلك بسؤال أهلها ابتداء ثم قراءة المصادر التي دوَّنت تاريخ البلاد وحضارته والمراحل التي مرت بها منذ النشأة والتأسيس إلى اكتمال النضج والرسوخ.

ح.**تقويم الفكر والنظر**، وذلك برؤية مستجدات واجتهادات وقضايا ونوازل جديدة لم يسبق أن وقف عليها في بلده، فيؤثر ذلك في نظره للأمور، ويقوِّم فكره بالتعرف على المستجدات التي

ينبغي اعتبارها في الدراسة والبحث، لأن العالم والباحث لا يكتب لنفسه ولا يبني أطاريحه من فراغ، بل ينطلق من حاجة المجتمع وأفراده إلى أجوبة وحلول لمشاكلهم وسؤالاتهم.

ط.**اكتساب ملكات جديدة**، مثل التواصل مع الآخر، وتعلم اللغات واللهجات إن كان كلام البلد ولغته مختلفة عن لغة الباحث والطالب، ولنا في البعثات المعاصرة أكبر دليل على تعلم أبنائها لغات جديدة تمكنهم من التعرف على ثقافات الآخر وحضارته وتاريخه، ويستطيع بها الباحث قراءة المصادر والمراجع التي تفيد تخصصه ومجال عمله.

ك.**لقاء أعيان البلد من العلماء والمفكرين**، ومجالستهم وأخذ العلم عنهم بأعلى طرق التحمل وهي السماع من الشيخ، فإذا سمع الطالب والتلميذ من شيخه مباشرة كان الفهم أكبر، وكان سوء الفهم أبعد، لأن كثرة الوسائط بين من خرج منه الكلام ابتداء وبين من وصل إليه تفسد أغلبه إلا إذا كان النقلة من الثقات العدول الذين عرفوا بالتثبت في الرواية والسماع. وفي هذا يقول العلامة ابن خلدون رحمه الله: "والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل: تارة علما وتعليما وإلقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا." (ابن خلدون، 1988).

وذكر العلامة التُّجيبي في مقدمة رحلته المشهورة قوله: "فإنه لما كان جلتنا معشر فئة الحديث، وقدوتنا في القديم والحديث قد بينوا إلينا أن الرواية سبب في الدراية، وقرروا لدينا أن الدراية منقذة من الجهل والغواية" (التجيبي، 1981).

فالأخذ عن الشيخ والمعلم والمربي والصانع بصفة مباشرة يكون أكثر رسوخا في ذهن المتعلم، ويفهم المراد بصورته الكاملة، وإذا كان للشيخ والمعلم مؤلفات قد قرأها الطالب قبل لقياه، فمجالسته واللقاء به فرصة لسؤاله وعرض ما كتبه عليه ليستزيد من الفهم والفقه في الموضوعات التي كتبها المؤلف في كتابه، والعرض ثاني درجات التحمل عند العلماء والمحدثين.

أما أهمية الرحلة للعالم والأستاذ فيمكن إجمالها في العناصر الآتية:

أ.**نشر العلم والمكتسبات المعرفية**، وذلك بمشاركة ما عنده من المعارف والعلوم التي اكتسبها في بلده مع أهل البلاد التي رحل إليها من تلاميذ وعلماء ومفكرين، وقد يكون للعالم الرحالة أسانيد عالية ومرويات قوية يفيد بها أهل البلد الذي قصده.

وقد وقع ذلك لكبار علماء الأمة في رحلاتهم وأسفارهم، كالإمام البخاري رحمه الله والشافعي قبله، وأحمد بن حنبل، وأعلام الأندلس والمغرب الذين رحلوا إلى المشرق كيحيى بن يحيى الليثي، وابن العربي المعافري، وابن رُشيْد السبتي، وغيرهم من العلماء الذي رحلوا من أجل مقاصد مختلفة وخصصت لهم مجالس علمية للسماع منهم وأخذ الرواية عنهم.

ب. **اكتساب معارف وعلوم جديدة**، المعلم الناجح والشيخ المجد والعالم الجهبذ هو الذي لا يتوقف عن طلب العلم والمعرفة والبحث عن الحقيقة، ومن ظن نفسه قد أكمل مرحلة الطلب وانتقل إلى مرحلة التعليم فقط فهو مخطئ في ذلك، لأن العلم يتجدد بتجدد الأحوال والنوازل، والعالم لا يتوقف عن طلب العلوم والمعارف إلا بوفاته، لأن العلم جزء من عبادة الله تعالى وهو أعظمها، وقد قال الله عز وجل لنبيه الكريم: "وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ". (سورة الحجر، آية 99)، واليقين هو الموت وبلوغ الأجل كما فسره أهل التأويل.

ج.**تحقيق سنة المذاكرة والمناقشة**، وهي سنة الصحابة رضوان الله عليهم إذ كان يدخل عليهم النبي صلى الله عليه وسلم وهم مجتمعون لمذاكرة ما علمهم إياه من العلوم والمعارف، وقد قال عليه الصلاة والسلام مادحا من نهج سنة المذاكرة والمدارسة: "مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ" (أبوداود، 2009) .

فلقاء الشيوخ والعلماء وعقد المجالس الخاصة بالمذاكرة ومناقشة المستجدات العلمية والنوازل الفقهية، يزيد من ملكة العالم ويزكي علمه ومعرفته، ويقوِم فكره ونظره بما سمعه من غيره إما من قرينه في العلم أو شيخه أو من هو دونه، لأن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها.

يقول الخطيب البغدادي رحمه الله في أسباب وجوب الرحلة على العالم والمتعلم: "المقصود في الرحلة في الحديث **أمران:** أحدهما تحصيل علو الإسناد وقدم السماع، والثاني لقاء الحفاظ والمذاكرة لهم والاستفادة عنهم". (الخطيب البغدادي، 1983)

وقد وقعت مذاكرات ومناظرات بين علماء المسلمين في مجالس مختلفة، كما وقع بين الشافعي وأحمد بن حنبل واسحاق ابن راهويه والليث بن سعد ومالك وغيرهم من أئمة المسلمين، وخصها بعضهم بمؤلفات خاصة كالمنهاج للإمام الباجي، وما وضعه الجويني في البرهان، والقرافي في الذخيرة، وغيرهم من الأعلام، وهي مناظرات استفاد منها الطلاب والعلماء وأفادوا من نتائجها ومن منهج الحجاج والمذاكرة.

د. **تبادل الخبرات ونشر الثقافات،** لأن المدرس والمعلم والمثقف والعالِم هو خير سفير لبلده في العلم والمعرفة، لا ينقل علمه فقط، بل يوصل ثقافة بلده، ويبلغ رسالته وأهدافه، ويعرف بحضارته وبما تميزت به، ويستفيد كذلك من ثقافة الآخر وينقلها إلى أهل بلده الذي رحل منه، كما أنه يفيد غيره بما تحصل لديه من الخبرات والتجارب العلمية والمعرفية، ويسهم في توطيد العلاقات بين البلدين.

هـ.**اكتشاف المستجدات في مجال تخصصه والتخصصات المساعدة له،** إن العالم الذي يرغب في التميز والأستاذ الذي ينشد الرُّقي بنفسه ومجتمعه لا يتوقف عن البحث ومدارسة أهل الاختصاص في بلده أو غيرها من البلدان، ويفتش أثناء رحلاته عن كل ما استجد من البحوث والأطروحات العلمية في ميدانه، ويلتقي بأصحابها ويأخذ عنهم ما توصلوا إليه من الأفكار والنتائج العلمية والفكرية.

ولنا في قصة موسى عليه السلام النبي المؤيد بوحي الله له وتمييزه عن غيره بالرسالة عظات وعبر، فلم يقل حين التقى بالخضر عليها السلام أنه قد بلغ من العلم ما يكفيه عن الطلب والبحث والاكتشاف، بل صوَّر لنا القرآن نموذجا مثاليا عن العالم الذي يرغب في الاكتشاف ويصبر على التعلم من غيره، فكانت رحلته مع الخضر رحلة مميزة تعلم فيها جملة من الأمور التي لم تكن في سابق علمه وفكره.

و. **اكتساب المهارات والقدرات**، وذلك بحضور الدورات التكوينية التي يقدمها أهل الاختصاص للأساتذة والمعلمين من أجل تحسين مهاراتهم في التواصل وفن التدريس.

ز. **زيارة المكتبات العامة والخاصة**، والاطلاع على المخطوطات التي تحتاج إلى تحقيق وإخراج، وهذا لا يكون إلا من المحققين الجهابذة الذين يتتبعون التراث الفكري والإنساني، ويعملون على تحقيقه وإخراجه للطلبة والمتعلمين وعموم الناس، ولنا في علمائنا المعاصرين مثال يقتدى به، كالشيخ أحمد شاكر، وعبد الفتاح أبو غدة، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وعبد السلام هارون، وعبد القادر الأرناؤوط وغيرهم من المحققين الذين رحلوا في تتبع المخطوطات وإخراجها إلى الوجود بغية الفائدة ونشر العلم بين الناس.

04- المحور الثالث: أثر الرحلة في التربية والسلوك.

للرحلات العلمية أثر كبير على سلوك الرحالة سواء كان طالبا أم أستاذا، وقد يصل هذا الأثر إلى استحسان الإقامة في البلد المرتحل إليه مدة أطول، بل هناك من أقام بالبلاد التي رحل إليها حتى وافته المنية، وهم كثير.

ويتجلى أثر الرحلة في تربية وسلوك الرحالة من خلال الوجوه الآتية:

1. **تأثير البيئة في النفس والسلوك**، وذلك بمشاهدة جملة من المشاهد الطبيعية التي قد يفقدها الإنسان في بلده الأم، فيكون لها تأثير كبير على طباعه ونفسه، وقد أشار إلى بعض من ذلك العلامة عبد الرحمن ابن خلدون رحمه الله خلال حديثه عن البوادي والحواضر وما ينشأ عن اختلافها من أثر في البدان والأخلاق فقال: " وتتبع ذلك في الأقاليم والبلدان تجد في الأخلاق أثرا من كيفيات الهواء والله الخلاق العليم". (ابن خلدون، 1988). وقال في موطن آخر: " وهذا مشاهد في أهل البادية مع أهل الحاضرة وكذا المتغذون بألبان الإبل ولحومها أيضا مع ما يؤثر في أخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة". (ابن خلدون، 1988).

2. **التأثر بمن لقيهم من العلماء وأهل الفضل**، وهذا يتحصل للطالب والمتعلم أكثر من غيره، لأنه يرى من سلوك العلماء وتواضعهم وعبادتهم وحسن أخلاقهم ما يدعوه إلى التأسي والاقتداء بهم في ذلك، وقد كان الزهاد وأرباب الأحوال ولا زال بعضهم في بعض البلاد يرحل من أجل

تحصيل التربية وتزكية النفس وتهذيبها، بمجالسة أهل الذكر والعلم والفضل، والإفادة من سلوكهم قبل علمهم.

وهذا من السنة النبوية، حيث كان الصحابة رضوان الله عليهم يتأثرون بصفات رسول الله وأخلاقه وتربيته قبل تأثرهم بعلمه، ومن ذلك: ما رواه أسامة بن شريك، يقول: "أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا أصحابه عنده فكأن على رءوسهم الطير". (النسائي، 2001).

3. **اكتساب خصلة الصبر والتحمل،** وهذا للعالم عند أداء علمه وصبره على كثرة السؤال وتكرار الحديث من أجل الفهم والفقه، وللمتعلم حين يصبر على أستاذه، فقد يكون الأستاذ شديدا في تدريسه وتلقينه، وقد يمتنع عن التحديث أحيانا لما يراه من سلوك البعض أو امتحانا لهم حتى يختبر صبرهم على طلب العلوم.

وقد ذكر القرآن الكريم نماذج من ذلك، من بينها صبر الأنبياء على أسئلة أقوامهم، كما حدث لموسى عليه السلام مع سؤالات بني إسرائيل، وما حدث لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه عند ابتداء دعوته، وقد ذكر القرآن عدة أحداث منها قوله تعالى: "فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ". (سورة الأحقاف، آية 35).

وقال الخطيب البغدادي رحمه الله معلقا على رحلة موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام: "قال بعض أهل العلم إن فيما عاناه موسى من الدأب والسفر وصبر عليه من التواضع والخضوع للخضر بعد معاناة قصده مع محل موسى من الله وموضعه من كرامته، وشرف نبوته دلالة على ارتفاع قدر العلم، وعلو منزلة أهله، وحسن التواضع لمن يلتمس منه ويؤخذ عنه، ولو ارتفع عن التواضع لمخلوق أحد بارتفاع درجة، وسمو منزلة لسبق إلى ذلك موسى، فلما أظهر الجد والاجتهاد، والانزعاج عن الوطن والحرص عن الاستفادة مع الاعتراف بالحاجة إلى أن يصل من العلم إلى ما هو غائب عنه دل على أنه ليس في الخلق من يعلو على هذه الحال، ولا يكبر عنها". (الخطيب البغدادي أ.، 1975).

ويقول الدكتور عبد الفتاح أبو غدة في كتابه الماتع "**صفحات من صبر العلماء**"، معلقا على مجموعة من النماذج التي ذكرها في الصبر على التحمل وأداء الرسالة ما نصه: "وما أصبر أولئك الشيوخ على إشاعة العلم وإيصاله للمتعلمين، أداء للأمانة ووفاء بالعهدة، وإنا لله من طلبة هذا العصر الذين يستعجلون قرع الجرس ليخرجوا من الدرس المؤقت بخمسين دقيقة، في ألين الأوقات راحة، وأفضلها نشاطا، وأجمعها ذهنا، من قاعات مبردة صيفا، مدفأة شتاء، فيخرجون من قاعة العلم يزحم بعضهم بعضا، كأنهم يفرون من حريق، أو ينطلقون من سجن ظالم قتَّال". (أبوغدة، 2003).

وهذا وصف دقيق من رجل مارس التعليم لسنين عديدة، وخبر ميدانه، ورحل فيه إلى بلدان مختلفة، فكأنه صور مقارنة بين صبر السابقين وضجر المعاصرين، إلا أن تصويره ليس مطردا، فالخير ما زال في أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة، ولا زال كثير من الباحثين ينشد التميز في الطلب والرقي في التعلم والتعليم، مع وجود ما تميز به عصرنا من كثرة مراكز البحوث والدراسات العلمية التي سهلت على الباحثين كثير من المشاق، وذللت لهم الصعاب، بالإضافة إلى الثورة المعلوماتية التي تفيد من استخدمها بصفة إيجابية، وتقرب له البعيد الذي كان صعب المنال عند السابقين، والله المستعان.

4. **توريث الخشية**، إذا ازداد العالم والمتعلم علما زادت خشيته لله تعالى وكان أحرص على تبليغ وأداء ما سمع بكل أمانة ومصداقية، وقد زكَّى الله سبحانه عباده العلماء بقوله: " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ". (سورة فاطر، آية 28). وسياق هذه الآية دال على ندب السير والارتحال في الأرض والتفكر في عظمة ما خلق الله سبحانه وتعالى من المخلوقات، وختم الآية بأن تحقق العلم والفكر يورث للعلماء خشية الخالق العالم سبحانه وتعالى.

05- المحور الرابع: أثر الرحلة في الثقافة والتعليم.

لا يخفى على الباحثين المتخصصين أثر الرحلات العلمية والفكرية في ثقافة وتعليم الفرد والمجتمع، بدءا من الرحالة نفسه وانتهاء ببيئته ومجتمعه وما يحصل فيه من التقدم العلمي والثقافي، ولولا كبر الأثر وقوته لما جاءت الدعوة الربانية في القرآن الكريم إلى ضرورة الرحلة

والخروج من أجل طلب العلوم والمعارف، والعودة من أجل الإسهام في إثراء ثقافة المجتمع وحضارته. قال سبحانه وتعالى: " وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ" (سورة التوبة، آية 122).

وروى الإمام أبو داود بسنده إلى كثير بن قيس، قال: كنت جالسا مع أبي الدرداء، في مسجد دمشق فجاءه رجل، فقال: يا أبا الدرداء: إني جئتك من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم لحديث بلغني، أنك تحدثه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جئت لحاجة، قال فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات، ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا، ولا درهما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر". (أبوداود، 2009).

وروى الإمام الترمذي رحمه الله بسنده عن أبي هارون العبدي، قال: كنا نأتي أبا سعيد، فيقول: مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الناس لكم تبع، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرضين يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا". (الترمذي، 1998). فهذه الأدلة والآثار المروية حجة ثابتة في استحباب الخروج وطلب العلم من أجل التفقه والتعلم وطلب المعرفة، ولولا وجود الأثر الذي يعود بالنفع على الجماعة والفرد من الرحلات في طلب العلوم لما حث الشارع الحكيم على ذلك، بل كانت الآية صريحة وواضحة في دلالته على أن الهدف من الخروج هو العودُ بالنفع والفائدة على المجتمع وتنبيهه وتوعيته وتحذيره، من خلال قوله تعالى: "وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ". (سورة التوبة، آية 122).

وقد لخصت أثر الرحلة على الثقافة والتعليم في العناصر الآتية:

أ. **طلب العلو في الإسناد،** فالإسناد من الدين، وتميزت العرب بثلاث خصال: الإسناد والإعراب والأنساب، كما قرره الحافظ ابن حزم رحمه الله وغيره من أهل العلم والفضل، وطلب الإسناد لا

يقتصر على علم الحديث فقط، بل هو عام في جميع العلوم والصنائع، لأن العالم البحاثة لا يرضى بالجاهز ولا يكتفي بكل ما سمع دون تمحيص، بل يحتاج إلى الرحلة من أجل أخذ العلم عمن خرج منه ابتداء أو كان سنده في العلم المطلوب عاليا، وهذا الأمر قد حرص عليه الصحابة رضوان الله عليهم فكانوا يرحلون من أجل سماع الحديث الواحد ممكن سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

وإذا ثبت أن الإسناد وعلوَّه مطلوب ومن خصال العرب وخصائصها فهو معمول به في جميع العلوم والمعارف والصنائع، فالطب والهندسة وغيرها من العلوم التجريبية إذا أخذها الباحث عن العلماء الذين اختصت بحوثهم بدراسة تلك التخصصات وأبدعوا في تجديدها وتطويرها ليس كمن أخذها بكثرة الوسائط وبالنقل دون تجربة وخبرة، وهكذا في سائر العلوم الشرعية والاجتماعية والتجريبية، وفي هذا يقول العلامة أبو الفضل المقدسي رحمه الله: " فقد أجمع أهل النقل على طلبهم العلو ومدحه إذ لو اقتصروا على سماعه بنزول لم يرحل أحد منهم، ثم وجدنا الأئمة المقتدى بهم في هذا الشأن سافروا الآفاق في سماعه ولو اقتصروا على النزول لوجد كل واحد منهم ببلده من يخبره بذلك الحديث". (القيسراني، د.ت.ن).

ب. **التثبت والتمحيص والتمييز**، كثرة العلوم ووفرتها في عصرنا الحاضر مدعاة إلى التثبت والتمحيص والتمييز من العالم والمتعلم، خاصة بعد الطفرة المعلوماتية التي شهدها العالم الحديث في الألفية الثالثة، إذ أصبح كل من هب ودب يكتب وينشر دون حسيب ولا رقيب، وأضحى تمييز الطيب من الخبيث المسموم صعب للغاية إلا لمن اجتهد في التثبت والتمحيص والبحث والدراسة، وغالب ذلك يكون بالرحلة والأسفار، للقاء أهل العلم والفضل وسؤالهم عن مروياتهم وما ألفوه من الكتب والمطبوعات، والتثبت مما ورد فيها من العلوم والقضايا، ومناقشتهم ومذاكرتهم في ذلك، لتكون الصورة في ذهن الناظر من العلماء والمتعلمين مكتملة واضحة، يستطيع أن يبني بعدها جملة من المعارف والأحكام.

ورحلة التمحيص والتثبت من العلوم كانت في عهد الصحابة والتابعين وهم خير القرون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشدهم حرصا وصدقا وأمانة، وأبعد الناس عن الكذب والتهمة والخيانة، فنحن أولى بالحرص والتثبت والتمحيص في زماننا هذا منهم.

ج. **البحث عن المخطوطات،** وهذا خاص بالعلماء المحققين الذين مارسوا التحقيق في شتى الميادين، إذ من شروطهم المشهورة أن التحقيق لا يبنى على نسخة واحدة، بل يحتاج المحقق المنصف إلى تتبع النسخ ومقابلتها، وتمييز النسخة الأم من غيرها، وهذا في الغالب لا يحصل إلا بالرحلة والسفر وتثوير المكتبات العامة والخاصة من أجل الظفر ولو بنزر يسير من ذلك.

ولا شك أن تحقيق المخطوط وإخراجه من غياهب المكتبات والخنادق وإخراجه للساحة العلمية منقحا مضبوطا من أجل الإسهامات التي تثري ثقافة البلدان وتنمي حضارتها المعرفية.

د. **الإسهام في الثقافة العامة للفرد والمجتمع،** إذ لا شك أن الرحالة العالم الباحث عن الحقائق المعرفية، لا ينطلق من فراغ، بل ينطلق بعد تحصيل مجموعة من المعارف والعلوم عند شيوخ وعلماء بلده أولا، وهذا من آداب الرحلة كما قرر الحافظ ابن الصلاح رحمه الله وقبله الخطيب البغدادي، وخروجه بهذه الحمولة المعرفية يسهم في الثقافة العامة للبلدان التي يرحل إليها أو يتوقف بها بصفة مؤقتة، فيستفيد منه أهل العلم بذلك البلد، ويأخذون ما غاب عنهم من العلوم، ويسألونه عما قد يكون استجد ببلده ولم يصل إليهم بعد، وبهذا يكون الرحالة قد أسهم في إغناء الثقافة والمعرفة العامة والخاصة بالبلدان التي يحل بها.

هـ. **الإسهام والمشاركة في المراكز البحثية،** وهذا مشترك بين الطلاب والأساتذة وعموم المثقفين، لأن العالم في عصرنا الحاضر يحتضن جملة من المراكز البحثية في مختلف العلوم، وتفتح أبوابها لجميع الباحثين من أجل النهضة العلمية والثورة الثقافية التي يسعى إلى تحقيقها كل بلد من البلدان، وأكبر مثال على ذلك ما شهدته الأمة العربية والغربية على حد سواء من البعثات وبرامج الابتعاث منذ منتصف القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، وخصصت ميزانيات ضخمة لدع البحث العلمي ومواكبة الباحثين في شتى الميادين، وما ذلك إلا لأهميته وقدرته على تحقيق المناعة الفكرية التي تحصن المجتمع من الدخيل.

و. **تعزيز التعاون الثقافي والعلمي بين البلدان،** من أهم المرتكزات التي تسعى البلدان لتحقيقها والعناية بها، تعزيز التعاون الثقافي والمعرفي بين البلدان، فتجد في كل بعثة دبلوماسية لجنة خاصة أو مركز أو ملحق ثقافي، غايته استقبال الباحثين والمثقفين ومساعدتهم في أبحاثهم ورحلاتهم العلمية التي يحتاجون إليها من أجل استكمال مسارهم الدراسي حسب الأنظمة الأكاديمية المستحدثة "بكالوريوس، ماجستير، دكتوراه"، وكذلك مساعدة الأساتذة الباحثين في التفرغ العلمي وتطوير الذات الذي يخوله لهم قانون التعليم العالي في فترات مختلفة من سنوات تدريسهم وخدمتهم.

06- المحور الخامس: أثر الرحلة في الابتكار والإبداع.

لا ريب أن الابتكار والإبداع لا ينتجان من فراغ، بل يحتاج في تحقيقهما إلى صبر ومصابرة وتكرار التجارب، وتحمل المشاق من أجل ابتكار فكرة واحدة، والإبداع في تنزيلها وتحقيقها على أرض الواقع، لأن الابتكار والإبداع نتاج مخاض بين الفكر وما تم تحصيله من المعارف والمهارات.

وإذا تحقق لدينا من خلال ما سبق عرضه من الأفكار والمكتسبات، أن الرحلة في طلب العلوم والمعارف ومقابلة الأعيان كفيلة بتحقيق الكثير من المكتسبات المعرفية والعلوم الإنسانية والتجريبية، وتطور من مهارات الرُحل وتزيد من قدراتهم الجسدية والعقلية والنفسية، فالرحالة إذا عاد إلى بلده بكل هذه المكتسبات قادر على تحقيق الابتكار والابداع الذي يطور بلده ويزيد من قيمته المعرفية والحضارية والعمرانية.

وتتجلى صور الابتكار والإبداع في الوجوه الآتية:

أ. **ابتكار مجموعة من الأفكار** التي ترقى بتحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والعلمية في المجتمع، لأن الباحث الذي عاد من رحلته العلمية لا يخلو من تأثره بالمشاهد العمرانية والبيئة الاجتماعية والاقتصادية التي شهدها في رحلته، وينتج عنده مجموعة من الأفكار الجديدة التي لم يعهدها في بلده الأم، فيشتغل على تنزيلها وتحقيقها بتقديم مقترحات للجهات المختصة، وهذه هي وظيفة الباحث والعالم وموقعه في بناء الدولة، فالمطلوب الأول منه هو البحث

والاستكشاف وابتكار الأفكار وتقديم المقترحات التي تنهض بمجتمعه ودولته، فإذا حقق ذلك، أدى رسالته وسلَّم الأمر إلى من وُكِل إليه التنزيل والتطبيق بحسب آلياته المشهورة، وإذا تم التنزيل تحقق الإبداع المنشود.

ب. **إنشاء المراكز العلمية والبحثية،** من أجل الاشتغال ضمن فُرق بحثية على مجموعة من العلوم التي أخذها الباحث في رحلته ويحتاج المجتمع إلى تطويرها وتجديدها في كل زمن من الأزمنة، وقد تكون هذه المراكز خاصة يتكفل الفرد بإنشائها وتحمل أعبائها، وقد تكون عامة داخل جامعة أو صرح أكاديمي، يشرك الباحث فيه معه غيره من المختصين، ويسهم في نشر المعرفة داخل الحرم الجامعي وخارجه، بما يفيد مجتمعه ووطنه.

ج. **إبداع مشروع ثقافي حضاري،** يوثق الباحث فيه إما بصور مرئية أو مؤلفات مطبوعة مشاهد رحلته، ويكون مرجعا للباحثين والطلاب والأساتذة الراغبين في الرحلات العلمية، وقد كان من سنة السابقين توثيق رحلاتهم كرحلة ابن فضلان وابن خلدون وابن جبير والعبدري وغيرهم من الأعلام، وقد تركت هذه التوثيقات بصمة كبيرة في التراث الإنساني، وأصبحت مرجعا يمتح منه الباحثون في تراجم العلماء ودراسة أحوال البلدان وبيئاتها الاقتصادية والاجتماعية والعلمية، ولولا رحلة ابن خلدون رحمه الله من المشرق إلى المغرب وما شهده من المشاهد والأحداث لما ترك لنا مصدرا من أمهات المصادر في التاريخ والفكر وعلم الاجتماع، أفاد منه العالم أجمع، ورجع إلى مادته كل من سلك طريق العلم والمعرفة والبحث.

د. **إبداع المدارس الفكرية المعتدلة،** وقد بدأ ذلك مع الصحابة رضوان الله عليهم ومن جاء بعدهم من التابعين وفقهاء الإسلام، فبعد تفرق الصحابة في الأمصار في زمن النبوة وبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أصبح كل صحابي إمام لمدرسة لها تلاميذ وطلاب يوثقون فكره واجتهاده وما أخذه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من السنن والفقه، وهذا أمر ضروري في كل زمان، لأن توحيد الأمة وتربية أبنائها على قيم المواطنة الصادقة الصالحة، لا يكون إلا بوجود مدرسة فكرية في الوطن، ينتمي الجميع في اجتهاده وفكره لها وينتظم في اجتهاده وبحثه

وفق قواعدها، وتكون رمزا لذلك الوطن وحضنا لأبنائه، وحِصنا لهم من الأفكار الدخيلة التي تشوش فكرهم وعقولهم.

هـ. **تعزيز الأمن الروحي، وتوطيد قيم المواطنة،** وذلك بما شاهد الرحالة في رحلته من المشاهد التي قد يكون في بعضها اضطراب وذبذبة، لأن البلدان منها من ينعم بالاستقرار التام ومنها ما يشوش على استقراره وأمنه بعض المارقة، من أجل ذلك وجب على الباحث الفطِن والعالم المنصف المحقق، أن يحذر قومه ووطنه مما قد يشوش عليهم في فكرهم وعقيدتهم وترتيبهم وسلوكهم، ويحقق بذلك قوله سبحانه وتعالى: "وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ". (سورة التوبة، آية 122).

يقول العلامة ابن عاشور رحمه الله في "التحرير والتنوير" : " فالإنذار هو الموعظة، وإنما اقتصر عليه لأنه أهم، لأن التخلية مقدمة على التحلية، ولأنه ما من إرشاد إلى الخير إلا وهو يشتمل على إنذار من ضده. ويدخل في معنى الإنذار تعليم الناس ما يميزون به بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ وذلك بأداء العالم بث علوم الدين للمتعلمين". (ابن عاشور، 1984).

وغيرها من صور الإبداع المتجددة والتي شهدها عصرنا الحاضر، وكانت نتيجة للبعثات العلمية وبرامج الابتعاث ومنح التعليم بين البلدان، التي عاد أبناؤها بالنفع على أوطانهم في شتى الميادين والحقول المعرفية "شرعية، اجتماعية، اقتصادية، طبية، روحية" وغيرها.

وليس هذا بآخر الممكن، في آثار الرِّحلات العلمية على الفرد والمجتمع، بل هناك في كل وقت مستجدات تشهدها الساحة العلمية.

07- الخاتمة

بعد هذه الرحلة الوجيزة مع نشأة الرحلات العلمية وتاريخها وأثرها في التربية والثقافة والابتكار والإبداع، خلصت إلى نتائج عدة من أهمها:

أهم النتائج:

1) ثقافة الرحلة والابتعاث حاضرة عند المسلمين من المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين.

2) الرحلات العلمية والفكرية جزء من تاريخ علماء المسلمين، وركيزة من ركائز حضارتهم.

3) أسهمت الرحلات العلمية إسهاما كبيرا في البناء الحضاري والثقافي والاجتماعي لكثير من البلدان والأقطار.

4) نقل العلوم ونشر المعرفة وإحياء التراث وصقل الملكات الفقهية والحديثية والأدبية والصناعية كان بسبب الرحلات العلمية المتواصلة.

5) للرحلات العلمية أثر كبير في التربية والتزكية والسلوك.

6) التعرف على ثقافة الآخر وتعزيز التبادل الثقافي بين البلدان لا يكون إلا بالرحلات العلمية.

7) الأستاذ والعالم والباحث المحقق خير سفير لبلاده ووطنه، من أجل نشر الثقافة المكتسبة وعرض العلوم والمعارف.

8) الرحلة العلمية والابتعاث الأكاديمي مصدر من مصادر الإبداع والابتكار.

9) تُعزز الرحلات العلمية قيم المواطنة وترسخ الأمن الروحي عند الأجيال.

10) الرحلات العلمية الموثقة والمحفوظة مصدر من مصادر المعرفة الإسلامية والإنسانية، وقد متح منها المتقدمون والمتأخرون والمعاصرون في أبحاثهم ورسائلهم العلمية.

قائمة المراجع:

1.القرآن الكريم.

2.ابن خلدون, ع. ا .(1988) .*تاريخ ابن خلدون* .بيروت: دار الفكر.

3.ابن عاشور, م. ا .(1984) .*التحرير والتنوير* .تونس: دار النشر التونسية.

4.أبوداود, س .(2009) .*السنن* .دار الرسالة العالمية.

5.أبوغدة, ع. ا .(2003) .*صفحات من صبر العلماء* .بيروت: دار البشائر.

6.التجيبي, ا. ب .(1981) .*البرنامج* .ليبيا: الدار العربية للنشر.

7.الترمذي, م. ب .(1998) .*سنن الترمذي* .بيروت: دار الغرب الإسلامي.

8.الخطيب البغدادي, ا. أ .(1983) .*الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع* .الرياض: مكتبة المعارف.

9.الخطيب البغدادي, أ. ب .(1975) .*الرحلة في طلب الحديث* .

10.الشافعي, م. ب .(1995) .*ديوان الإمام الشافعي* .بيروت: دار الأرقم.

11.القاضي عياض, ا .(1983) .*ترتيب المدارك وتقريب المسالك* .المحمدية، المغرب: دار فضالة.

12.القيسراني, م. ب) .د.ت.ن .(*مسألة العلوم والنزول في الحديث* .الكويت: مكتبة ابن تيمية.

13.النسائي, أ. ع .(2001) .*السنن الكبرى* .بيروت: مؤسسة الرسالة.